بسم الله الرحمن الرحيم

التمهيد:

يمثل التراث المركز الذي يدور حوله الشعراء وينهلون من معينه الذي لا ينضب، وما يحمله هذا الموروث من دلالات وقيم وأفكار مختلفة.

تبلورت في سفر التاريخ وتغذت بأحداثه الطويلة، ولا يزال الشاعر يمتاح منها حتى يومنا هذا، لاسيما الأدب شعره ونقده. فالذوق العربي لم يكن ليخلو من السير على ذلك القديم وبقيت النماذج الأولى باستمرار لأنَّ (طريق الشعر هو طريق شعر الفحول، مثل امرئ القيس)[١].

ومن المستحسن أن الشاعر العباسي لا يبتعد عن التراث أو يتجاهله لأنَّه يثري لغته ويمده بالصور والأفكار. وهذا لا يعني التصرف بهذا الموروث بشكل يشوه القصيدة العباسية وإنما تسمو ألفاظها وعباراتها ويُغذيها ويزيد من توهجها، لأنَّ قيمة القصيدة يأتي من خلال ارتباطها بحاضرها وتعبيرها عن روح العصر الذي ولدت فيه، وهذه مهمة الشاعر إذْ يستخدم ألفاظه الموروثة بشكل متوازن بحيث لا تسحبه هذه الألفاظ إلى زمانها بل يستخدمها في زمانه ويصهرها في تجربته الحديثة النابعة من صميم واقعه وحاضره (ليحملها دلالات معاصرة تتيح لها مجاوزة زمنيتها وإقامة تواصل نفسي بين حالتي الغياب والحضور ويؤدي ذلك بالضرورة إلى تكثيف المعنى الفني والتعبير بدقة لغوية مركزة عما كان الشاعر مضطراً إلى شرحه والأسهاب فيه)[٢].

ومن هذا المفهوم تخلق علاقة بين الشاعر والموروث متكاملة تسمو فيه القصيدة وتزداد نصاعة وتحقق فيها الفنية الإبداعية والإنسانية، فالشاعر العباسي يضع تمثالاً مادته الماضي يعبر عن روح الحاضر، فيصبح الموروث قيمة إضافية تُمدْ النص الجديد الأستمرارية والخلود.

ويظهر الطابع القديم عند شاعرنا بشار في شعره لا من ناحية اللفظ والأسلوب فحسب بل (كان حريصاً على التمثيل بكل ما هو قديم، وحريص على إظهار براعته في محاكاة هذا القديم)[٣]، إذ استوعب هذا التراث وله القدرة الأتيان بمثله، ومن الحق يُجمع الرواة والنقاد (على أنَّه زعيم الشعراء المحدثين)[٤]، وهذا التمسك بالأصول التقليدية للشعر العربي من جهة ويفسح لتجديد الشاعر العباسي من ناحية أخرى بحكم رقيبه العقلي ومعيشته الحضارية إذْ ازدهر الماضي في الحاضر ونما الحاضر من خلاله. وتمثلت أساليبه بالنصاعة والإيجاز والتركيز ويطابع الدقة والوضوح والجمال [٥]، إذ يتصرف بدقة عالية مع الأغراض اليدوية القديمة يجمع رواسبه الخيالية، ويتم صياغتها بحسه المتحضر وذوقه المرهف وينميها من ثقافته المتنوعة ويلائمها من بيئته العباسية المتحضرة فهو لا يتفصل عن عصره، إذْ يتلقى الماضي ويحياه والحاضر ويحياه، فوصل الحاضر بالماضي برقيه العقلي.

وذلك من استنباطه المعاني وتوليدها من الشعر الذي سبقه، إذ استخرج الخواطر الرائعة بفضل براعته في التصوير ومثال القدماء، أنَّه ما زال معجباً ببيت امرئ القيس في وصف (العقاب):

كـأَن قلـوب الطيـر رَطبًـا ويابسًـا لـدى وكرِهـا العُنـاب والحشـفُ البـالي

حتى قال في قصيدة له:

كـأنَّ مُثـارَ النقـعِ فـوق رؤوسـنا وأسـيافنا ليـلٌ تهـاوى كوكبـة

ومن هنا جاءت صور بشار بإيحاءاتها ودلالاتها التعبيرية المرتبطة بالموضوعات الشعرية وبحالته النفسية، شكلت مساحة من أشعار القدماء مستمدة من

الطبيعة وبيئتهم الصحراوية فجاءت نصوص الشعر القديم ماثلة على لسان بشار بن برد.

سلطة النص القديم والدراسات القريبة من البحث

فقد ظل الشعر العربي في مسيرته اللاحقة منفتحاً على الشعر العربي قبل الاسلام ومشدوداً إلى أنموذجه زمناً طويلاً، فالشاعر العباسي بعد أربعة قرون أو يزيد لم يستطع أن يتخلى بصورة نهائية عن الأنموذج الذي رسمه الشعر العربي قبل الاسلام واحتذاء الشعراء الأمويين له، لأنه جزء من ثقافته وتراثه [٦].

حيث استمر الماضي في وجدان الشاعر العربي المتأخر وهيمن على تصوراته بحيث شكل لهب أسطورته ورؤيته لذاته [٧]، من غير أن يعني هذا – بالطبع – ففي العلاقات الفنية للشعر العباسي واتساع أفاقه وتجاوزاته. يقول الدكتور عز الدين اسماعيل ((لا نجد ظاهرة فنية كانت تشيع في الشعر الجاهلي قد كفت عن الاستمرار في الشعر الإسلامي في عصوره المختلفة، وكذلك لا يكاد نجد ظاهرة فنية في هذه العصور لم يكن لها أساس في الشعر القديم))[٨]، ولعلَّنا هنا نستطيع ايراد المقدمة الطللية مثلاً يوضح قدرة الشعر القديم على بث إمكاناته الفنية لاحقاً، بوصف المقدمة الطللية تشكيلاً فنياً مؤثراً لا موضوعاً معرفياً يمكن إلغاءه، إذْ الرؤية مقبولة على المستوى المعرفي على أساس أن الطلل من شؤون الحياة القديمة.

- الدراسات القريبة من البحث:

هناك دراسات وبحوث تناولت جزء من شخصية الشاعر بشار، الصورة البصرية وتداخلاتها في شعر الأكمه بشار بن برد [٩]، التجديد في شعر بشار بن برد [١٠]، جماليات اللون في مخيلة بشار بن برد الشعرية [١١].

- المبحث الأوّل:

١- وصف جمال المرأة.

٢- وصف الخمرة.

- المبحث الثاني

١-وصف الليل.

٢-وصف الحقد والأنانية.

٣- وصف الحرب وآلاتها.

المبحث الأوّل: وصف جمال المرأة:

وصف الشاعر القديم صورة المرأة البدوية وبيَّن ملامحها الجمالية، وشكلت موروثاً ضخماً في شعرهم، لكنها تميزت بالمبالغة بالحسيّة المثالية وذلك لسذاجة البدوي وعفويته (التي لم تمكنه من التعبير عن الأفكار المطلقة والعواطف والانفعالات المجردة إلاَّ باللجوء إلى التشبيه في رسم الصورة الأدبية بأشكال حسية مستلة من البيئة)[١٢].

وذلك لإرضاء ذوقه السائد الذي يمثل بالأوصاف المثالية المبالغ في وصفها فالأعرابي رشيق، دقيق، ونحيف ووجه ممشوق قليل اللحم وقد جعلته الرشاقة معتدل القوام بحيث استطاع الشاعر العباسي أنَّ يمزج بين عناصر مختلفة في الجمال، إذ يجمع بين الأبتلاء والرشاقة، فجمال المرأة الجسمي من الناحية الموضوعية (قائم على أنَّ منشأ الجمال الأتساق والانسجام في الألوان والأشكال)[١٣]، وتطرق شاعرنا العباسي –بشار– إلى هذه الصفات الجمالية عند المرأة كما تصورها البدوي وأكدها وتأنق في وصفها وصفاً حسيًا ويمنح في توظيف طاقاته التصويرية في رسم الوحدة العضوية المتكاملة لجسدها. كما تغنى الشاعر الجاهلي بشعر المرأة الأسود الفاحم وملائمته لبشرتها البيضاء وهو منتشر على متنها كقول الشاعر المخضرم المزرد بن ضرار الغطفاني [١٤]:

وأســـحْم ميـــال القـــرون كأنـــه أســـاودُ رمـــان السِـــباط الأطـــاولِ

فنرى بشار تأثر بهذا المعنى في قوله [١٥]:

كـــأَنَّ القـــرون علـــى متنهـــا أســـاودُ شَـــتَّ بهـــا أَبطـــحُ

إذْ تشبه ظفائر الجارية وهي تنسدل فوق كتفيها بالأفاعي السود فرقها مسيل الوادي والصورة تبدو تسير على النمط القديم، ولربما أحب الشعراء العباسيون الشعر الأسود (شأنهم في ذلك شأن من سبقهم من جاهلين وإسلاميين، ويبدو لم يتذوقوا الجمال في الشعور الذهبية)[١٦].

ونجد المعنى يتكرر في قول امرئ القيس [١٧]:

وفـرعٍ يـزينُ المـتنَ أسـود فـاحمٍ أثيـثٍ كقنـوِ النخلـةِ المتعثكـلِ

فالصورة الجمالية حسنة وظفها بشار في نصه الشعري، مع الإشارة إلى متن المرأة وقوامر الممشوق، إذ ساق بشار هذه الصفة [١٨]:

وصـفراءُ مِثـلُ الخيزرانـةِ لـم تعِـشْ ببـــؤسٍ ولـــم تركـــب مطيـــة راعِ

أهتم الشاعر القديم بوصف بياض البشرة من المرآة وراح يصف هذا اللون أروع الأوصاف ولعل ذلك يرجع إلى ندرته في باديتهم ذات البيئة الحارة فالجمال الأمثل عند العربي هو البياض، وجعل يعظهم البياض رداء الحسن [١٩].

فمضى شاعرنا العباسي بشار بن برد بالتغزل بالمرأة البيضاء وبثغرها الناصع فيقول [٢٠]:

ولهـــا مضـــحكٌ كثغـــر الأقـــاحي وحـــديثٌ كالوشـــي وشـــي البـــرودِ

ونجد لها نظيرٌ في قول أمرؤُ القيس [٢١]:

مهفهفةٌ بيضاءُ غيرُ مُفاضةٍ ترأئبها مصقولةٌ كالسنجلِ

كبكرِ المُقاناةِ البياضِ بصفرةٍ غذاها نميرُ الماء غيرُ المُحللِ

إذ جرى التشبيه ثغر الحبيبة بالأقحوانة البيضاء إذ أنَّ ارتباط الأقاحي بالمرأة من الصور التي طرقها الشعراء قديماً.

وقد وصل حب الشاعر بالمرأة البيضاء كثيراً والأعجاب بها. فإن نساء عمر بن كلثوم فإنهن بيض كرام يقول [٢٢]:

على أثارنا بيضٌ حسانٌ نُحاذُر أنَّ تُقسَّمَ أو تهونا

ولا شك أنَّ بشاراً أخذ هذه الصورة في وصف فتاته [٢٣]:

هجانٌ عليها حُمرةٌ في بياضها تروقُ بها العينين والحسنُ أحْمرُ

وهنا نرى أنَّ بشار له ألمام بالتراث الشعري القديم فظهرت لمساته الفنية مقترنة بإبداعيه الذاتي.

ولكن الشعراء القدماء في منظر إشراق صورة الوجه اهتموا كثيراً (لأنَّ الوجه الجميل مما يزيد في الهيبة ويتيه من به العرب لأنَّه يدل على الخصال المحمودة)[٢٤].

لذا شبهت المرأة بالشمس والكواكب وهذا في قول الشاعر قيس بن الخطيم[٢٥]:

تبّدتْ لنا كالشمس تحت غمامةٍ بدا حاجبٌ منها وضَنْت بحاجبِ

ومن قراءة البيت نلاحظ أنَّ بشار بن برد يعمد إلى النهج القديم فهو يقول في امرأة حسناء [٢٦]:

كالشمس بين الزبرج المُنتقدِّ سُلطان مبيضٍ على مُسودِ
ضَنَتْ بخدٍ وجلت عن خدِ ثم اثنت كالنفس المرتدِ

أي إن هذه الفتاة في ظهورها كالشمس وسط الغمام وهذا ظاهر في إشراقة وجهها وفي موقع آخر وصف وجه المرأة [٢٧]:

وبيضاءَ مكسال كأَنَّ حديثها إذا لقَيتْ منه العيونْ برود

واستخدم الشعراء النجوم والكواكب في تشبيهاتهم دلالة على التألق والسمو والجلالة والهيبة حتى يمدح بشار سليمان بن هشام فيقول [٢٨]:

أغرُّ هاشميَّ القَناةِ إذا انْتمى نمتهُ بدورٌ ليس فيهنَّ كوكبُ

ولعل بيت بشار قريب من معنى قول النابغة الذبياني في مدح النعمان حين قال [٢٩]:

فإنكَ شمسٌ والملوكُ كواكبُ إذا طلعتْ لم يُبد منهنَّ كوكبُ

إنَّ تراثنا العربي القديم أشار كثيراً إلى صفة الرفعة والشرف والكرم، إذ يقول حسان بن ثابت الأنصاري في مدح سيدنا الحمزة [٣٠]:

أبيض في الذروةِ من هاشمِ لم يَمرْ دون الحقِّ بالباطلِ

ولعل من الواضح التفات الشاعر العباسي إلى تراثه الزاخر بالعطاء ما جاء على لسان بشار في هذا المعنى [٣١]:

بـــيضٌ مصـــاليت دون خـــيمهم وْعـــرٌ ومـــا دون ســـيّبهم وعـــرُ

وليس عيباً من شعرائنا العباسيون إذا أخذوا من موروثنا الشعري إذْ وظفوه وزادوا فيه جمالاً فأن عنترة جمع الصفات الجمالية في محبوبته من الأرداف والخصر والخد في قوله (٣٢):

وردفٌ لـــه ثِقـلٌ وخِصـرٌ مهفهـفٌ وخـــدٌ بـــه وردٌ وســـاقٌ خـــدلج

وفي مشهد آخر لأوصاف المرأة في موروثنا الشعري تشبيه جلدها باللون الذهبي الناعم وجاء في غاية الدقة عن الشاعر سُحيم عيد بني الحسماس في قوله(٣٣):

وجيـدٍ كجيـد الـريم لـيس بعاطـلِ مـن الـدُّر والياقوت والشـذر حاليـا

كـأنَّ الثريـا عُلقـت فـوق نحرِهـا وجَمْـرَ غَضَـا هَبـتْ لـه الـريحُ ذاكيـا

وهذا المعنى طرقه بشار بن برد في تصوير جلد المرأة (جّمر وقود) إذ يقول (٣٤):

وأَغـــــنَّ يَحفِـــــلُ عُصـــــفُرًا وكأنـــــــهُ جمـــــــرُ وقـــــــودُ

إي أنَّ الجمر المتقد فيه حمرة تميزت به الموصوفة من لون رائع يناسب جلد المرأة.

لقد أحبَّ الشاعر القديم الطبيعة عموماً وذابَ في جنباتها، فجعل من الروضة الممرعة عنصر مشابهة للنماء والخصب من معشوقته التي يبحث عنها كما في قول الأعشى (٣٥):

ما روضةٌ من رياض الحَزنِ مُعشِبَةٌ خضـراءُ جـادَ عليهـا مُسـبلٌ هَطِيـلُ

يفاتحكَ الشمسَ منها كوكبٌ شرِقٌ مؤزرٌ بعميم النبتِ مكتهِلُ
يوماً بأطيبَ فيها نشَر رائحةٍ ولا بأحسنَ فيها إِذْ دنا الأصلُ

إذ قابل هذا المشهد الرائع الجمال الأنثوي الذي يحتوي على نشر الرائحة وكل ملامح الجمال في الروضة، ومن هذه العلاقة المتشابهة راح الشاعر بشار بن برد يرسمها في محبوبته [٣٦]:

يا حُسنها يومَ تراءت لنا مكسورة الطَّرفِ باغضَاءِ
كأنما ألبستها روضةٌ من بين صْفراءَ وخضراءِ

ويطالعنا بشار بصيغ وتشبيهات تلائم عصره بعد أنَّ أستقاها من الموروث الشعري القديم فقد روى الرواة أنَّه أنشد قول كُثيرّ [٣٧]:

ألا إنما ليلى عصَى خيزرانةٍ إذا غمزوها بالأكفِّ تلينُ

فقال والله لو زعم أنَّها عصا مُخَّ أو عصا زُيدٍ لقد كان جعلها جافية خشنة بعد أنَّ جعلها عصا آلاقال [٣٨]:

ودعجاء المحاجرِ من مَعَدٍ كأَنَّ حديثها ثمر الجنانِ
إذا قامت لمِشيتها تثنتْ كأَنَّ عظامها من خيزرانِ

وصف الخمرة:

امتازت العرب بهذا الفن –الخمريات– إذ إن الشاعر الجاهلي يدخل واقعه في شعره، وما كان له تأثير في نفسه، وتفننوا بوصفها، لأنها من مقدمات شخصيتهم وبيئتهم، ويعبرون من خلالها عن موقفهم من أنفسهم ومن الحياة ومن معانيها [٣٩].

ولكن في العصر العباسي عُدَّ وصفها مظهر من مظاهر الحضارة في الحياة العباسية، جاعلين منها مهبطاً لإلهامهم وإبداعهم في فنهم الشعري، فالمقارنة مما قال عنترة العبسي مع بشار، نرى الخلاف واضحاً فعنترة يصف الخمرة وكؤوسها أو الزجاجة التي وضعت فيها قوله [٤٠]:

بزجاجـــةٍ صـــفراءَ ذاتِ أســـرةٍ قُرِنَـتْ بـأزهَرَ فـي الشـمال مُفَّـدمِ

أمَّا بشار فقال [٤١]:

ونَـدمانِ صِـدقٍ قـد وصـلتُ حديثـهُ بـــأزهرَ مجَّـــاج المُدمـــةِ نبَّـــاح

إذا فرَغَـتْ كـأسُ امـرِئٍ خـرَّ سـاجداً وحـبَّ لنـا صَـفراءَ فـي طيـبِ تفـاحِ

إنَّ بشار هام في وصف الخمرة بشعره فوصف لونها وصفاءها كما وصف إبريق الخمرة الأبيض، وفي أبياته دررت تشير إلى نفسيته القلقة وهو لم يستلم وجعل منها عونًا لتحل معه أعباء الزمن ويرتمي بأحضانها لتسقيه من رحيقها الدافئ بالطمأنينة والأمل ليعوض ما فقده...

المبحث الثاني: وصف الليل

عبر الشاعر القديم عن الليل بمواقف مؤثرة بحكم واقعه وظروفه البيئية في ظل وجوده بين الأرض والسماء، فكانت صفحات الليل مهوى قرائهم والمدى الذي يتحرك فيه الشاعر يبعث أحلامه وأمجاده، أو يفقد فيه الأثنين معاً يوصف الغلبة لسطوته [٤٢].

أمَّا في العصر العباسي فقد شغل أخيلة الشعراء ومنهم شاعرنا بشار، فصور واقعه المؤلم وهو يتجرع آلام الحياة في ذاته الكامنة، لكن الشكوى من الليل بالمعنى القديم عند امرئ القيس في قوله [٤٣]:

وليـلٍ كمـوج البحـر أرخـى سـدوُلُه علـــيَّ بـــأنواعِ الهمـــوم ليبتلـــي

فقلتُ لـه لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً ونـاء بكلكلي
ألا أيها الليل الطويل ألا أنجلي يصبح وما الأصباح منك بأمثلِ
فيا لك من ليلٍ كأنَّ يخومه بكل مُغار الفُتلِ شُدت بيذبلِ

ويتناول بشار المعنى نفسه ويتأثر به، لكنه يجدد معاني من معطيات عصره فيقول (٤٤):

خليليَّ ما بالُ الدجى لا يتزحزحَ وما بالُ ضوء الصبح لا يتوضحُ
أضلَّ الصباح المستنيرُ سبيلهُ أم الدهرُ ليلٌ كلُه ليس يبرحُ
كأنَّ الدُّجى زادت وما زادت الدُّجى ولكن أطال الليل همٌّ مُبرحُ
لقد هاج دمعي نازحٌ بنزوحهِ ونومي إذا ما نومَ الناس أنزحُ

إذ وصف بشار ليلهِ –هو– لا ليل البادية كما عند الشعراء السابقين، فليس ليل كل يوم وإنما بمثل الظلمة المستديمة وذلك ناتج من أحساسه العميق لذلك كرر صيغة الأستفهام في نصه...، إذْ (استطاع بشار عن طريق توليد المعاني وعن طريق العبارة أنَّ يصوغ قديماً في جديد، وأن يقدم صورة مختلفة عن صورة امرئ القيس على الرغم من تأثره بالمعنى الذي تناوله (٤٥):

وقوله في موضع آخر عكس آلامه وأحاسيسه فيقول (٤٦):

تثاقل ليلي فما أبرحُ ونامَ الصباحُ فما أصبحُ

أنَّ ليل بشار ثقيل وحركته بطيئة ولعله استمد هذا المعنى من قول النابغة الذبياني (٤٧):

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلتُ أنَّ المنتأى عنك واسعُ

وقد أُعجب الأصمعي بشار حتى ليقول (إنه ما نظر إلى الدنيا قط، وكان يشبّه الأشياء بعضها ببعض في شعره، فيأتي بما لا يقدر البصر أنَّ يأتوا بمثلهِ)[٤٨].

وصف الحقد والأنانية:

تنطوي سريرة بشار على الحقد والكراهية تلقها مدافن الغيض الكامن بين ضلوعه لما يكتويه من فَقدْ البصر ووضعه المعاش البائس والمزري وحنقه من تصنيفه الطبقي فالتقى مع الوجع المادي والتخلف الاجتماعي زاد من قروحه النفسية وأنيع ذلك الحنظل كراهية للعرب وللدين الحنيف فاندلع لسانه بالهجاء المقذع إذْ كل ما يراه في عينه مظلم فأشعل في نفسه الغضب المميت والتعصب ضد العروبة والإسلام وراح يرسل سهامه المسمومة كل من يقف بوجهه معتمداً أسلوب التهوين والتحقير وترجمة ذلك أبياته الشعرية التي تفصح عن طويته: أنَّ هذه الكآبة السوداء ألقت بمرامها على أبداع شاعرنا بشار فصب جام غضبه كل ما يمت بصلة من موروثنا الأدبي القديم في نصه الشعري ومن دلالة الضغينة والحقد قوله [٤٩]:

ومعشرٍ مُنتقـعٍ لـي فـي صـدورهم سُـمَّ الأسـاودِ يغلـي فـي المواعيـدِ

وقد أستوحى هذه الدلالة من الموروث الشعري عند الأخطل [٥٠]:

وبيـتِ صـفاةِ فـي لِهـابِ لُعابُـهُ سـمام المنايـا أسـودِ اللـون حالـكِ

وفي معرض الذم قال بشار [٥١]:

وللبخيـل علـى أموالـه عِلـلٌ زرقَ العيـون عليهـا أوجـهٌ سُـودُ

فمن يحيل خياله الذكي في هذه الدلالة فهي صَورة رسمها الشاعر زهير بن أبي سلمى، قال [٥٢]:

فلمـــا وردن المـــاءَ زرقـــاً جُمامـــهُ وضَـــعنَّ عصـــي الحاضـــرِ المتخـــيمِ

إذ نجد ينشأ به نتاج الشعراء لأنَّ أطارهم الشعري (التراث) يكاد يكون واحد (فإن حدث تشابه بين معاني الشاعر وصوره ومعاني وصور بعض الشعراء المتقدمين كان ذلك نتيجة التذكر التلقائي المعتمد على فكرة تداعي المعاني)[٥٣].

وصف الحرب السلاح وآلاته:

لقد أشعل التعصب نفسية بشار فهو شديد الميل لقوميته الفارسية إذْ يهتف ويفاخر بقومه ويتغنى بأمجاد أجداده الفرس، ويكيل لأعداءه العرب أفذع الكلمات لكل من يقف بوجهه، لذا يظهر فروسيته من خلال تشبيه غبار المعركة والسيوف تتوهج فيه لشدة بياضها وإشراقها ما قاله عمر بن كلثوم [٥٤]:

تنـيس شَـنابكْهمْ مـن فـوق أرؤسُـهْم ســـقفاً كواكبـــه البـــيض المبـــاثيرُ

إذ قال بشار [٥٥]:

كـأنَّ مُثَـار النقـع فـوق رؤوسـهم وأســـيافنا ليـــلٌ تهـــاوى كواكبـــه

لكن بشار شبه غبار المعركة وما يلمع فيه من سيوف، يضرب بها الفرسان أعناق أعدائهم بالليل المظلم الذي تتساقط فيه النجوم، فهو تشبيه مركب ترى فيه النقع المظلم والسيوف تبرق وتعلو وتنخفض، وهذه الصياغة الجديدة منحت أبداعه الشعري قيمة عالية.

ولعل بشار أستقى هذا المفهوم من قول الشاعر خفاف بن نديه [٥٦]:

فعيـــلٌ لهـــم قـــرمٌ كأَنـــه بكفـــهِ شـــهاباً يـــدافي ظلمـــة الليـــل يلمـــعُ

وكثيراً ما تأخذه مخيلته الشعرية إلى النص الجاهلي فيما يترنم بشجاعته إذ يصف الخيل حين تشرب الماء الممتزج بدم الضحايا، والرايات خفاقة بين جنباتها في قول عمر بن كلثوم (٥٧):

بأنـــا نـــوردُ الرايـــاتِ بيضـــاً ونصـــدرهُنَّ حُمـــراً قـــد روينـــا

فأعتمد بشار هذه الصورة وقابلها بقوله (٥٨):

وجيشٍ كجنحِ الليلِ يزحفُ بالحصَى وبالشَّـــوكِ والخطـــي حُمـــرٌ ثعالبـــه

وليس عيباً أنَّ يتوكأ بشار على معينه التراثي فهو يطوره بصور جديدة ولعل السلاح في المعركة والكتائب المتداعية في المعركة تمخضت في مخيلته قول الحارث اليشكري (٥٩):

ثُـــمَّ حُمـــراً أعنـــي أُمِّ قِطـــامِ ولـــــهُ فارســـــيةٌ خضـــــراءُ

تجلت هذه الصورة في ذهن بشار فشكلت حضوراً لديه، إذ وصف أستة الرماح والسهام بقوله (٦٠):

أخـو صِـفة زُرقٍ وصـفراءَ سـمحةٍ يُجاذبهـــا مستحصـــدٌ وتجاذبُـــهْ

ولعل الغريب من قوله ما نجده عند الشاعر الشماخ (٦١):

بِـــزُرق النَّـــواحي مُرهفـــاتِ كأنمـــا توَّقـــدُ فـــي الصـــيفِ نيـــرانُ عـــرفَجِ

فقد أدى هذا التلاحم الشعري بين القدماء والمحدثين إلى الإبداع في التصوير كما شاهدناه، عند شاعرنا العباسي بشار بن برد فقد استطاع بمخيلته الشعرية أنَّ ينمي

الأحساس العباسي بصور جديدة بعيدة عن الصور البدوية الجافة إلى مستحدثة بمعانيها وصياغتها يرفدها من مكنونات عقله ودقائق تصاويره المستوحاة من ثقافته الواسعة من اطلاعه وحفظه النتاج الشعري القديم.

الخاتمة:

لا نسميها خاتمة بل هي نهاية مفتوحة، ليتخذ البحث من هذه العتبة منطلق إلى نهايات أخرى، وكان لزاماً علينا نشكر الذين سبقونا في الكشف عن شخصية رجل بصير مثل شاعرنا بشار بن برد، إذ ولِجَ ثقافة المة الإسلامية ولعل شعره أوصله إلى زعامة المحدثين، ويُعَدُ جسراً ترسمه الشعراء من حوله وبعده. إذ تمسك بالأصول التقليدية للشعر العربي من وصف المرأة، إذْ استنار من موروثه وفسح المجال لتجديد الشاعر العباسي من حيث الرقي العقلي والحضاري، مستمداً من الليل مصباح نوره ليريح همومه ممسكاً بجلابيب صاحب الحانة ومحتسياً رواق قدحه الخمري تحت ضلال فخره بالسيوف اللامعة بين غبار الوغى، فجاء أسلوبه يمتاز بالنصاعة والأيجاز والتركيز وبطابع الدقة والوضوح والجمال، بعد أنَّ جمع رواسب وخيال القصيدة البدوية القديمة، وطورها بحس مرهف وذوق جميل، ويمكن القول أنَّ البحث ارتبط بدراسة الموروث الشعري القديم واثره في شعر بشار، لعل ما وصلنا إليه يدعم أنَّ أصالتنا ويحقق ما كُنا نصبو إليه من هذا الجهد المتواضع.

والله الموفق..

هوامش البحث

(١) الموشح للمرزباني (٤٨٤هـ)، ٦٥.
(٢) لغة الشعر، قراءة في الشعر العربي الحديث، ٢٦.
(٣) بشار بن برد، سيد حنفي حسين، ١٩٦.
(٤) العصر العباسي الأوّل، د. شوقي ضيف، ط١، ٢٠٧.
(٥) يُنظُر: العصر العباسي الأوّل، د. شوقي ضيف، ط١، ٢٠٨.
(٦) ينظر: سلطة النص في المنظور النقدي والأدبي حتى نهاية القرن الخامس الهجري (اطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، إنعام فائق محيي، ١٩٩٨م، ٢٤٦).
(٧) الأسس الجمالية في النقد العربي، ٣٠٨، د. عز الدين اسماعيل (أو) جماليات القصيدة التقليدية بين التنظير النقدي والخبرة الشعرية، د. شكري محمد عياد، مجلة فصول، تراثنا النقدي، ج١، مج٦، ع٢، مصر ١٩٨٦م.
(٨) ينظر: الصراع بين القديم والجديد في الشعر العربي: ٢٤- ٢٥، د. محمد حسين الأعرجي، المركز العربي للثقافة والعلوم والإسلامية، بيروت، لبنان، د. ت.
(٩) يوسف طارق السامرائي (مجلة سر من رأى)، مج١٠، ع٣٨، تشرين الأول ٢٠١٤م.
(١٠) مجلة كلية التربية الأساسية، المستنصرية، د. جمال نجم العبيدي، ع٦٦، ٢٠١٠م.
(١١) مجلة اللُّغةِ العربية بدمشق، جماليات اللون في مخيلة بشار بن برد، د. عدنان محمود عبيدات، ج٢، م٨٠.
(١٢) يُنظُر: الشاعر الإسلامي تحت نظام سلطة الخلافة، ٤١.
(١٣) الغزل في العصر الجاهلي، ٢٦.
(١٤) ديوان المزرد بن ضرار الغطفاني، تحقيق العلامة الشيخ محمد رضا الشبيبي، ٣٤.
(١٥) ديوان بشار، ج٢، ٨٠.
(١٦) المرأة في أدب العصر العباسي، ٢٣٣.
(١٧) ديوان امرئ القيس، ١٤.
(١٨) ديوان بشار، ج٤، ١١٥.
(١٩) يُنظُر: العقد الفريد، ج٦، ١١٦.
(٢٠) الديوان، ج٢، ١٩٠.
(٢١) ديوان امرئ القيس شرحه وضبطه وقدم له غريد الشيخ، ١٣.
(٢٢) شرح المعلقات السبع الزوزني، ٤٤.
(٢٣) الديوان، ج٣، ٢٣٥.
(٢٤) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، ج٢، ٣٦٨.
(٢٥) ديوان قيس بن الخطيم، تحقيق ناصر الدين الأسد، ٣٥.
(٢٦) ديوان بشار، ج٢، ١٥٨.
(٢٧) ديوان بشار، ج٢، ١٢٠.
(٢٨) ديوان بشار، ج١، ٣٢١.
(٢٩) ديوان النابغة الذبياني – شرحه وضبطه غريد الشيخ، ١٠.
(٣٠) ديوان حسان بن ثابت- تحقيق عبد الله سنده، ٢٠٧.
(٣١) ديوان بشار، ج٣، ١٨٢.
(٣٢) ديوان عنترة العبسي، ٢٩.
(٣٣) ديوان سحيم عبد بني الحسماس، ١٧.
(٣٤) ديوان بشار، ج٢، ١٥٤.
(٣٥) شروح المعلقات للشنقيطي، تحقيق أحمد أحمد شتيوي، ١٧٩.
(٣٦) ديوان بشار، ج١، ١٤٠.
(٣٧) الفن ومذاهبه، د. شوقي ضيف، ١٥٥.

(٣٨) الفن ومذاهبه، د. شوقي ضيف، ١٥٥.
(٣٩) يُنظُر: الفن الشعري الخمري وتطوره عند العرب، ٧٣.
(٤٠) ديوان عنترة، ١٦.
(٤١) ديوان بشار، ج٢، ٨٨.
(٤٢) يُنظُر: الزمن عند الشعراء قبل الإسلام، عبد الإله الصائغ، ٢٩٦.
(٤٣) ديوان امرئ القيس، ١٥.
(٤٤) ديوان بشار، ج٢، ٧٧.
(٤٥) الصورة في شعر بشار بن برد، ٢٣٤.
(٤٦) ديوان بشار، ج٢، ٧٩.
(٤٧) ديوان النابغة الذبياني، ٧٣.
(٤٨) الفن ومذاهبه، د. شوقي ضيف، ١٥٦.
(٤٩) ديوان بشار، ج٣، ١٤٣.
(٥٠) ديوان الأخطل، ١٨٠.
(٥١) ديوان بشار، ج٣، ١٢١.
(٥٢) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، صنعه الأمام أبي العباس أحمد بن يحيى الشيباني، ٤٧.
(٥٣) مشكلة السرقات في النَّقدُ الأدبي، ٢٥٩.
(٥٤) ديوان عمر بن كلثوم، ٤١.
(٥٥) ديوان بشار بن برد، ج١، ٣٣٥.
(٥٦) شعر خفاف بن ندبة، ١٠٧.
(٥٧) شرح المعلقات السبع للزوزني، ١٣٣.
(٥٨) ديوان بشار بن برد، ج١، ٣٣٢.
(٥٩) شرح المعلقات العشر، ١٦٠.
(٦٠) ديوان بشار، ج١، ٣٣٢.
(٦١) ديوان الشماخ بن ضرار، ٧، شرحه أحمد بن الأمين الشنقيطي.

المصادر والمراجع:

١- بشار بن برد، سيد حنفي حسنين، مطبعة دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٨م.

٢- ديوان الأخطل، غيّاث بن غوث، اعتنى به وشرحه، عبد الرحمن المصطاوي، ط٣، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

٣- ديوان الشماخ بن ضرار، شرحه أحمد بن الأمين الشنقيطي، مطبعة السعادة، مصر ١٣٢٧هـ- ١٨٩٩م.

٤- ديوان المزرد بن ضرار الغطفاني، برواية ابن السكيت وغيره وشرح ثعلب، عني بتحقيقه خليل إبراهيم العطية، قدَّم له العلامة الشيخ محمد رضا الشبيبي، ط١، مطبعة أسعد، بغداد، ١٣٨٢هـ- ١٩٦٢م.

٥- ديوان النابغة الذبياني، شرحه وضبطه وقدَّم له غريد الشيخ، ط١، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

٦- ديوان امرئ القيس، شرحه وضبطه وقدم له غريد الشيخ، ط١، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.

٧- ديوان بشار بن برد، تحقيق وتعليق الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع والنشر، ١٩٧٦.

٨- ديوان حسان بن ثابت، تحقيق عبد الله مسندة، ط٢، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

٩- ديوان سُحيم عيد بني الحسماس، تحقيق الأستاذ عبد العزيز الميمني، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٦٩هـ- ١٩٥٠م.

١٠- ديوان عمر بن كلثوم الثعلبي، جمعه وحققه وشرحه إميل بديع يعقوب، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ١٩٩٠م.

١١- ديوان عنترة العبسي، وضعه عبد الرحمن البرقوقي، راجعه وفهرسه، د. يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م.
١٢- ديوان قيس بن الخطيم، عن ابن السكيت وغيره، حققه وعلق عليه الدكتور ناصر الدين الأسد، ط١، مكتبة دار العروبة، القاهرة- مصر، ١٣٨١هـ- ١٩٦٢م.
١٣- الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام، عبد الإله الصائغ، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد- العراق، ١٩٨٦م.
١٤- سلطة النص في المنظور النقدي والأدبي حتى نهاية القرن الخامس الهجري (اطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، إنعام فائق محيي، ١٩٩٨م).
١٥- الشاعر الإسلامي تحت نظام سلطة الخلافة، د. داود سلوم، منشورات مكتبة الفكر الجامعي، بيروت- لبنان، ١٩٧٥م.
١٦- شرح المعلقات السبع للزوزني، تحقيق وشرح، أ. د. أحمد احمد شتيوي، ط١، دار الغد الجديد، القاهرة- مصر، ١٤٢٧هـ- ٢٠١٦م.
١٧- شرح المعلقات العشر للشنقيطي، تح: أ. د. أحمد احمد شتيوي، ط١، دار الغد الجديد، القاهرة- المنصورة، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.
١٨- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، صنعه الإمام أبي العباس أحمد الشيباني، الدار القومية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م.
١٩- شعر خفاف بن ندبة السلمي، جمعه وحققه الدكتور نوري حمودي القيسي.
٢٠- الصراع بين القديم والجديد في الشعر العربي، د. محمد حسين الأعرجي، المركز العربي للثقافة والعلوم والإسلامية، بيروت، لبنان، د. ت.
٢١- الصورة في شعر بشار بن برد، الدكتور عبد الفتاح صالح نافع، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان- الأردن، ١٩٨٣م.

٢٢- العصر العباسي الأوّل، د. شوقي ضيف.
٢٣- العقد الفريد، أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (٣٢٨هـ)، تحقيق أحمد أمين وزميليه، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٩م.
٢٤- الغزل في العصر الجاهلي، د. أحمد محمد الحوفي، مطبعة النهضة العربية، القاهرة، ط٢، د. ت.
٢٥- الفن الشعري الخمري وتطوره عند العرب.
٢٦- الفن ومذاهبه في الشعر العربي، شوقي ضيف، ط١٣، دار المعارف بمصر، د. ت.
٢٧- لأسس الجمالية في النقد العربي، د. عز الدين اسماعيل (أو) جماليات القصيدة التقليدية بين التنظير النقدي والخبرة الشعرية، د. شكري محمد عياد، مجلة فصول، تراثنا النقدي، مصر ١٩٨٦م.
٢٨- لغة الشعر قراءة في الشعر العربي الحديث، د. رجاء عيد، منشأة المعارف، الأسكندرية، ١٩٨٥م.
٢٩- مجلة اللُّغةِ العربية بدمشق، جماليات اللون في مخيلة بشار بن برد، د. عدنان محمود عبيدات، ج٢، م٨٠.
٣٠- مجلة كلية التربية الأساسية، المستنصرية، د. جمال نجم العبيدي، ع٦٦، ٢٠١٠م.
٣١- المرأة في أدب العصر العباسي، د. واجدة مجيد عبد الله الأطرقجي، دار الرشيد للنشر، بغداد، العراق، ١٩٨٠م.
٣٢- مشكلة السرقات في النَّقدُ الغربي، دراسة تحليلية مقارنة، محمد مصطفى هدارة، مكتبة الإنجلو المصرية، مصر، ١٩٥٨م.

٣٣- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، الحسن بن بشر بن يحيى الآمدي (ت ٣٧٠هـ)، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٧٢م.
٣٤- الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني (ت ٣٨٢هـ)، تحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٦٥م.
٣٥- يوسف طارق السامرائي (مجلة سر من رأى)، مج١٠، ع٣٨، تشرين الأول ٢٠١٤م.